﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ ٣٠ مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 30 - 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعدَ مُحاوَلَةِ فِرعَونَ إفسادَ الأمرِ ارتَفَعَ الخِطابُ إلى أُسلوبِ التَّخويفِ والتَّهديدِ

بَعدَ أن قالَ فِرعَونُ هَذا الكَلامَ الدّالَّ على جَهلِهِ وعَجزِهِ وذُلِّهِ وفقدانِ الحُجَّةِ من جِهَةٍ، وعلى استِبدادِه وطُغيانِهِ من جِهَةٍ أخرى ظَهَرَ لهَذا المُؤمِنِ أنَّ فِرعَونَ ذُلَّ لكَلامِه، ولَم يَستَطِع مُصارَحَتَهُ ولا مُقارَعتَهُ الحُجَّةَ بالحُجَّةِ، فارتَفَعَ إلى أُسلوبٍ أصرَحَ مِنَ الأُسلوبِ الأوَّلِ، وهوَ أُسلوبُ التَّخويفِ والتَّهديدِ، فأخبَرَنا اللّه تعالى عَن استِمرارِ هَذا الدّاعيَةِ المُؤمِنِ الحَكيمِ في الدَّعوَةِ والنُّصحِ والإرشادِ، فخَوَّفَهُم مِن مَغَبَّةِ السَّيرِ وراءَ ادّعاءِ فِرعَونَ، وحَذَّرَهُم مِنَ المُكابَرَةِ في أمرِ موسى عليه السلام.

ولَمّا كانَ أقَلُّ ما يُخشى يَكفي العاقِلَ، وكانَت قُدرَةُ اللّه سُبحانَهُ عَلَيهِم كُلِّهِم على حَدٍّ سَواءٍ لا تَفاوُتَ فيها، فكانَ هَلاكُهم كُلِّهم كَهَلاكِ نَفسٍ واحِدَةٍ ضَرَبَ لَهُم مَثَلًا مُجمَلًا بيَومِ الأحزابِ، ثُمَّ فصَّلَ وبَيَّنَ، أو بَدَّلَ بَعدَ أن هَوَّلَ، فبَيَّنَ سُنَّةَ اللّهِ العَزيزِ المُتَعالِ في دأبِ الأقوامِ المُكَذِّبينَ مِنَ الأُمَمِ السّابِقَةِ، مثلِ قَومِ نوحٍ فيما دَهَمَهم مِنَ الهَلاكِ الَّذي مَحَقَهم، ومثلِ عادٍ وثَمودَ مَعَ ما بَلَغَهُم مِن جَبَروتِهِم.

ولَمّا كانَ هَؤُلاءِ أقوى الأُمَمِ اكتَفى بِهِم وأجمَلَ مَنْ جاؤوا مِن بعدِهم.

ولَمّا كانَ في مَقامِ الوَعظِ لَهم ومُرادُهُ رَدُّهم عَن غَيِّهِم بِكُلِّ حالٍ عَلَّقَ أمرَ الهَلاكِ بالإرادَةِ؛ لأنَّها مَتى ارتَفَعَت انتَفى الظُّلمُ؛ لأنَّ أحَدًا لا يَتَوَجَّهُ أبَدًا إلى أنَّهُ يَظلِمُ عَبيدَهُ الَّذينَ هم تَحتَ قَهرِهِ، وطَوعُ

مَشيئَتِهِ وأمرِهِ، ومَتى لَم يَعرِفوا حَقَّهُ وأرادوا البَغيَ على مَن يَعرِفُ حَقَّهُ عاقَبَهم بلا شكّ، وإلّا كان كَفُّهُ ظُلمًا للمَبغيِّ عَلَيهِم[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْأَحْزَابِ﴾: (حزب) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ تَجَمُّعُ الشَّيءِ، فمِن ذَلِكَ الحِزبُ: الجَماعَةُ مِنَ النّاسِ، قالَ اللّه تَعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣﴾ [المؤمنون: 53]، والطّائِفَةُ مِن كُلِّ شَيءٍ حِزبٌ. يُقالُ: قَرَأ حِزبَهُ مِنَ القُرآنِ. وتَحَزَّبَ القَومُ: تَجَمَّعوا. والحِزبُ: أصحابُ الرَّجلِ على رَأيه وأمره، والمُؤمِنونَ حِزبُ اللّه، والكافِرونَ حِزبُ الشَّيطانِ. وكُلُّ طائِفَةٍ تَكونُ أهواؤُهُم واحِدَةً فهُم حِزبٌ[2]. والمَعنى المحوَريُّ تَجَمُّعُ الشَّيءِ مُتَماسِكًا مُتَكتِّلًا شَديدًا أو مُتَمَيِّزًا عَمّا حَولَهُ[3]. والمُرادُ بأيّامِ الأحزابِ أيّامُ إهلاكِهِم، والعَرَبُ يُطلِقونَ (اليَومَ) على يَومِ الغالِبِ ويَومِ المَغلوبِ، والأحزابُ الأُمَمُ؛ لأنَّ كُلَّ أُمَّةٍ حِزبٌ تَجمَعُهم أحوالٌ واحِدَةٌ وتَناصُرٌ بَينَهم، فلِذَلِكَ تُسَمّى الأُمَّةُ حِزبًا[4].

2) ﴿دَأْبِ﴾: (دأب) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على مُلازَمَةٍ ودَوامٍ، فالدَّأبُ: العادَةُ المُستَمِرَّةُ دائِمًا على حالَةٍ، ودَأبَ الرَّجُلُ في عَمَلِهِ إذا جَدَّ، إلّا أنَّ العَرَبَ حَوَّلَت مَعناهُ إلى الشَّأنِ[5]. والمَعنى المحوَريُّ له: الاستِمرارُ في إتيانِ الشَّيءِ بِجِدٍّ لدَفعِ يَمنَعُ الفُتورَ[6]. والدَّأبُ في الآيةِ: اجتِهادُهُم في كُفرِهِم وتَظاهُرِهِم على موسى عليه السلام[7]، وعادَتُهم ودَيدَنُهم في الكُفرِ والمَعاصي[8] وتَكذيبِ الأنبياءِ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

لَم يَسكُتِ الرَّجُلُ المُؤمِنُ أمامَ تَدليسِ فرعَونَ وتَمويهِهِ الَّذي نَطَقَ بِهِ، بَل استَرسَلَ في نُصحِهِ لقَومِهِ، فقالَ لَهُم: يا قَومِ إنّي أخافُ عَلَيكُم إذا تَعَرَّضتُم لموسى عليه السلام بالقَتلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59 - 61.
(2) الخليل بن أحمد، كتاب العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حزب).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حزب).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، مفردات القرآن: (دأب).
(6) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دأب).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (دأب).
(8) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 255.

أو بالتَّكذيبِ أن يَنزِلَ بِكُم عَذابٌ مِثلُ العَذابِ الَّذي نَزَلَ على الأُمَمِ الماضيَةِ الَّتي تَحَزَّبَتْ على أنبيائِها، وأعرَضَتْ عَن دَعوَتِهِم، فكانَتْ عاقِبَتُها خُسرًا، بِسَبَبِ وُقوفِهِم مِن أنبيائِهِم مَوقِفَ العِداءِ والبَغضاءِ، فكَأنَّ تِلكَ الأُمَمَ مِن حِزبٍ والأنبياءَ مِن حِزبٍ آخَرَ، ثمَّ أردَفَ قائلًا: إنّي أخافُ عَلَيكُم أن يَكونَ حالُكُم وشَأنُكُم كَحالِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم كَقَومِ لوطٍ، فهَؤُلاءِ الأقوامُ كَذَّبوا أنبياءَهُم فدَمَّرَهُمُ اللّه تعالى تَدميرًا، فاحذَروا أن تَسيروا على نَهجِهِم، بأن تَقصِدوا موسى عليه السلام بالقَتلِ أوِ الإيذاءِ، فيَنزِلَ بِكُمُ العَذابُ مِثلَما نَزَلَ بِهِم. وما اللّه تعالى يُريدُ ظُلمًا للعِبادِ، ذَلِكَ أنَّ ما أنزَلَهُ تعالى بِهِم مِن عَذابٍ، إنَّما هوَ بِسَبَبِ إصرارِهِم على شِركِهِم، وعَلى الإعراضِ عَن دَعوَةِ أنبيائِهِم، وما ظَلَمَهُمُ اللّه، ولَكِن كانوا أنفُسَهُم يَظلِمونَ[1].

التَّخويفُ مِن عاقِبَةٍ مثلِ عاقِبَةِ السّابِقين، فالعاقِلُ مَن اعتَبَرَ بِغَيرِه

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الوصلِ بالواوِ في الآيةِ:

وَصَلَ النَّظمُ الحَكيمُ قَولَ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ بالجملة السّابِقَة؛ لكونه تَكمِلَةً لكَلامه الَّذي لَم يَكُن فيه تَعريجٌ على مُحاوَرَةِ فِرعَونَ على قَولِه: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾، وذلك لمقاطعةِ فرعَونَ خِطابَهُ، فاستَرسَلَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ يُكمِلُ مَقالَتَهُ، فعَطَفَ فِعلَ قَولِه بالواوِ ليَتَّصِلَ كَلامُهُ هذا بالكَلامِ الَّذي قَبلَهُ، ولئَلّا يُتَوَهَّمُ أنَّهُ قَصَدَ بِهِ مُراجَعَةَ فِرعَونَ، ولَكِنَّهُ قَصَدَ إكمالَ خِطابِهِ[2]؛ ليُدخِلَ الكَلامَ مُدخَلًا جَديدًا بِطَريقَةٍ أكثَرَ وُضوحًا وأبيَنَ تَصريحًا، وخُلاصَتُها: أنَّ سُلوكَ الطّاغيَةِ والصَّمتَ عَنهُ يُدَمِّرُ الكُلَّ ويَستَأصِلُ

استِكمالُ الخِطابِ دونَ التِفاتٍ لِلمُقاطَعَةِ الفَجَّةِ من فِرعَونَ

(1) محمد سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 287 - 288.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.

الكُلَّ، وإذا كانَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ يُلَوِّحُ بِذَلِكَ في مِثلِ قَولِهِ: ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأۡسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَاۚ﴾ فإنَّهُ هُنا يُصَرِّحُ بِعَذابِ الاستِئصالِ[1].

غَرَضُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

مؤمنُ آلِ فرعونَ عريقٌ في إيمانِه

في قَولِ اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾ عَدَلَ النَّظمُ الحَكيمُ عَنِ الصّيغَةِ الأولى الَّتي وصَفَ بِها مُؤمِنَ آلِ فِرعَونَ - وهي ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ﴾ - إلى التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾؛ وذَلِكَ لأنَّهُ قَد عُرِفَ بِمَضمونِ الصِّلَةِ بَعدَ ما تَقَدَّمَ[2] مِن حَديثِه ومَواقِفِهِ الإيمانيَّةِ الرّاسِخَةِ، إذِ الوَصفُ بالاسمِ المَوصولِ يُشيرُ إلى عَراقَتِه في الإيمانِ.

وَأشارَ البقاعيُّ إلى أنَّ النَّظمَ الجَليلَ إنَّما جاءَ مُكتَفيًا في وصفِهِ بالفِعلِ الماضي لأنَّهُ في مَقامِ الوَعظِ الَّذي يَنبَغي أن يَكونَ مِن أدنى مُتَّصِفٍ بالإيمانِ، بَعدَ أن ذَكَرَ عَراقَتَهُ في الوَصفِ لأجلِ أنَّهُ كانَ في مَقامِ المُجاهَدَةِ والمُدافَعَةِ عَن موسى ﷺ الَّذي لا يُقْدِمُ عليه إلّا راسِخُ القَدَمِ في الدّينِ[3].

نُكتَةُ حَذفِ مُتَعَلَّقِ الإيمانِ:

الحَذفُ لظُهورِ الدَّلالَةِ ولكَثرةِ مُتَعَلَّقاتِ الإيمانِ

حَذَفَ البيانُ القُرآنيُّ مُتَعَلَّقَ الإيمانِ في جملة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ﴾، وذلك لوُضوحِه وُضوحًا شَديدًا، ولِدَلالَةِ المَقامِ عَليهِ دَلالَةً ظاهِرَةً جَليَّةً، فضلًا عن أنَّ في حَذفِهِ إيجازًا جَميلًا واختِصارًا بَليغًا؛ إذ إنَّ مُتَعَلَّقاتِ الإيمانِ كَثيرَةٌ جِدًّا، ومِنها الإيمانُ باللّه تعالى، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِه، ورُسُلِه، واليَومِ الآخِرِ، والقَدَرِ خَيرِهِ وشَرِّهِ، وغَيرُها كَثيرٌ مِن قَضايا الإيمانِ الأصليَّةِ والفَرعيَّةِ، فاكتَفى النَّظمُ الجَليلُ بِوَصفِ الإيمانِ مُجَرَّدًا؛ لدَلالَتِه على كُلِّ ما اشتَمَلَ عليه.

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 117.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 134.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.

غَرَضُ تكرار النِّداءِ بِـ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

عـدمُ الاهتمامِ بمقاطعةِ فرعونَ له، مع بيانِ خطورةِ الحَدَث

أعادَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ نِداءَ قَومِهِ مَرَّةً أُخرى في جملة ﴿وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ﴾، وهيَ لازِمَةٌ أُسلوبيَّةٌ تَكَرَّرَتْ خَمسَ مَرّاتٍ في حديثِه في السّورَةِ الكَريمَةِ؛ لِما فيها مِنَ الدَّلالَةِ على القُربِ والإخلاصِ وصِدقِ المُناصَحَةِ، فضلًا عن الإشعار بأنَّ حِدثًا ذا بالٍ يوجِبُ مناداتَهُ لقَومِه[1]، وفي النِّداءِ كذلك إشعارٌ بعدمِ اهتمامِ مؤمنِ آلِ فرعونَ بمقاطعةِ فرعونَ له، فهو مع قومِهِ قلبًا وقالبًا، يكملُ حديثَهُ معهم غيرَ آبهٍ بفرعونَ وما قاله.

فائِدَةُ تَوالي المؤكِّداتِ في قَولِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ والباعِثُ عليها:

لـلمؤكِّداتِ أثَرٌ في مَزيدِ العِنايَةِ بالمَعنى، وبَيانٌ لإشفاقِ المُؤمِنِ على قَومِهِ

تضمَّنَ قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ﴾ مُؤَكِّداتٍ أُسلوبيَّةً؛ لبَيانِ مَدى عنايةِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ بقَومِهِ وإشفاقِه عليهم، مِن ذَلِكَ التَّوكيدُ بِـ (إنَّ)، وبالجملة الاسميّة، وتعبيرُهُ بصيغَةِ المُضارَعَةِ؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ خَوفِهِ واستمرارِه، فأكَّدَ كلامَهُ لِما رَأى عِندَهم مِن إنكارِ أمرِهِ، وخافَ مِنهم أنْ يتَّهموه[2] بِعَدَمِ المَوضوعيَّةِ والمَيلِ عَن مَصلَحَتِهم.

نُكتَةُ تَعديَةِ فِعلِ الخَوفِ بِـ (على):

استِعلاءُ الخَوفِ وإحاطَتُهُ بِجَوانِحِ الرَّجُلِ المُؤمِنِ إشفاقًا عَلَيهِم

عَدَّى النَّظمُ الحَكيمُ الفعلَ ﴿أَخَافُ﴾ بحَرفِ الجَرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، فكأنَّ الخَوفَ قد غَشيَ الخائفَ نفسَهُ والمَخوفَ عليهم، وعَلاهُم وأحاطَ بهم مِن جَميعِ أقطارِه ونَواحيه. وفيهِ بَيانٌ لمَدى إشفاقِهِ عليهم وإحسانِهِ إليهم، ورَحمَتِهِ بِهِم.

وجهُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿أَخَافُ﴾ دَلالةً وصيغةً:

بيانُ تَجَدُّدِ الخَوفِ واستِمرارِه

آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ استِعمالَ الفعلِ المُضارِعِ ﴿أَخَافُ﴾ للتَّعبيرِ عَنِ استِشعارِ المُؤمِنِ كَذِبَ فِرعَونَ، ولإفادةِ تَجَدُّدِ خَوفِه واستمرارِه من أن

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 114، وتمّ فيما سبق بيان علّة حذف ياء المتكلّم بما يغني عن تكراره هنا.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.

يَتمادَوا في إرادَةِ قَتلِ موسى ﷺ وتَكذيبِهِ، فيَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالأُمَمِ السّابِقَةِ مِن عَذابٍ ونَكالٍ جَرّاءَ تَكذيبِهم لأنبيائِهِم، فالآيَةُ بَيانٌ لِما سَبَقَ في صَدرِ السّورَةِ في قَولِه تعالى في الآيتين: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٤ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۢ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥﴾ [غافر: 4 - 5].

نُكتَةُ تَقديمِ شِبهِ الجملة ﴿عَلَيۡكُم﴾:

قَدَّمَ النَّظمُ الحَكيمُ شِبهَ الجملة ﴿عَلَيۡكُم﴾ على المَفعولِ ﴿مِّثۡلَ﴾ في قَولِ اللّه تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾؛ للاهتِمامِ بهم، ولإبرازِ مَدى شَفَقَتِهِ عَلَيهِم، ورَحمَتِهِ بِهِم في المَقامِ الأوَّلِ.

الاهتِمامُ بهم وإظهارُ شَفَقَتِهِ عليهم في المَقامِ الأوَّلِ

المُرادُ بالمِثليَّةِ وموقِعُ ﴿مِّثۡلَ﴾ النَّحويُّ:

المُرادُ بالمِثليَّةِ في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ التَّماثُلُ في صِفَةِ ما نَزلَ بالأُمَمِ المَذكورَةِ من عَذابٍ وعِقابٍ، بِسَبَبِ تَكذيبِهِم وكُفرِهِم بأنبيائِهِم وهمِّهِم بالفَتكِ بِهِم وقَتلِهِم.

التَّماثُلُ في صِفَةِ ما نَزلَ بالأُمَمِ المَذكورَةِ مِن عَذابٍ وعِقاب

وذَهَبَ أغلَبُ المُعرِبينَ إلى أنَّ كَلِمَةَ ﴿مِّثۡلَ﴾ مَفعولٌ بِهِ مَنصوبٌ، وذَهَبَ بَعضُهُم إلى أنَّهُ نَعتٌ للمَفعولِ؛ أي: أخافُ عَلَيكُم يَومًا مِثلَ أيّامِ الأحزابِ[1]. فحُذِفَ المَوصوفُ الَّذي هو المفعولُ ودَلَّتِ الصِّفَةُ عَلَيهِ، وفي حَذفِهِ إشارَةٌ إلى استِهوالِهِ وشَناعَةِ ما يَقَعُ بِهِم وعَلَيهِم فيهِ مِن عَذابِ الاستِئصالِ، ولِذَلِكَ لَم يُظهِرهُ؛ لأنَّهُ لا يُريدُ أن يَجريَ على لسانِهِ يَومٌ يُستَأصَلُ فيهِ قَومُهُ.

نُكتَةُ إفرادِ ﴿يَوۡمِ﴾ مَعَ الأحزابِ:

أفرَدَ النَّظمُ الحَكيمُ لَفظَ ﴿يَوۡمِ﴾ هَهُنا؛ لأنَّ اليَومَ واحِدُ الأيّامِ

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 151.

بِمَعنى الوَقائِعِ، أو كانَ لكُلِّ حِزبٍ يَومٌ، أو جَمعُ الأحزابِ يُغني عَن جَمعِ اليَوم. وقَد كَثُرَ استِعمالُها بِذَلِكَ حَتّى صارَ حَقيقَةً عُرفيَّةً أو بِمَعناها المَعروفِ لُغَةً، والكَلامُ عليه على حَذفِ مُضافٍ؛ أي: مِثلَ حادِثِ يَومِ الأحزابِ.

إفـرادُ (اليـوم) أروَعُ وأقـوى في التَّخويفِ وأفظَعُ للإشارَةِ إلى قوَّةِ الله تعالى

وأيًّا يكنِ الأمرُ فالظّاهِرُ جَمعُ اليَوم، لَكِنَّ جَمعَ الأحزابِ مفسَّرٌ بِما بعدَهُ، فأغنى عَن جَمعِهِ، والمَعنى على إرادة الجمعِ، ورُجِّحَ الإفرادُ للخِفَّةِ والاختِصارِ، أو المُرادُ: يَومَ حُزِّبَ حِزبٌ، بِمَعنى أنَّ جَمعَ حِزبٍ مُرادٌ بِهِ شُمولُ أفرادِهِ على طَريقِ البَدَلِ، وهو تَأويلٌ في الثّاني، وما تَقَدَّمَ أظهَرُ[1]، فيَومُ الأحزابِ مُرادٌ بِهِ جِنسُ الأيّامِ لا يَومٌ مُعَيَّنٌ مُحَدَّدٌ، بِقَرينَةِ إضافَتِهِ إلى جَمعٍ أزمانُهم مُتَباعِدَةٌ[2].

وذَهَبَ البقاعيُّ إلى أنَّ إفرادَهُ أروَعُ وأقوى في التَّخويفِ وأفظَعُ للإشارَةِ إلى قوَّةِ اللّه تَعالى، وأنَّهُ قادِرٌ على إهلاكِهِم في أقَلِّ زَمانٍ[3].

مَعنى (أل) في ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾:

فـي مـعـرفـةِ أخبارِ السّالفينَ تـخـويـفٌ مِـن مُلاقاةِ مَصيرِهِم

جاءَت كَلِمَةُ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في جملة ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ مُعَرَّفَةً باللّام، والمُرادُ باللّام هَهُنا العَهدُ الذِّكريُّ للَفظَةِ ﴿ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ في قَولِ اللّهِ تَبارَكَتۡ آلاؤُه في أوَّلِ السّورَةِ: ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ﴾ [غافر: 5]. وقَد تَكونُ للعَهدِ الذِّهنيِّ؛ أي: الأحزابِ مِنَ الأُمَمِ الَّتي خَلَت مِن قَبلِهم، وقَد عَرَفوا مِن أخبارِهم ما يُخَوِّفُهُم مِن مُلاقاةِ مَصيرِهم، وهَذا يَقتَضي أنَّ القِبطَ كانوا على عِلمٍ بِما حَلَّ بِقَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ، فأمّا قَومُ نوحٍ فكانَ طوفانُهم مَشهورًا، وأمّا عادٌ وثَمودُ فلِقُربِ بِلادِهِم من البِلادِ المِصريَّةِ، وكانَ يومُهم عَظيمًا لا يَخفى على مُجاوِريهم[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 133.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 59.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.

المَوقِعُ النَّحويُّ لقَولِهِ: ﴿مِثْلَ دَأْبِ﴾ الآية:

الـجَـزاءُ مِـن جِنسِ العَمَل، والـعـاقِـلُ مَـن اعتَبَر

ذَهَبَ المُعربونَ إلى أنَّ كَلِمَةَ ﴿مِّثْلَ﴾ في جملة ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ فيها وجهانِ؛ **الأوَّلُ**: أنَّها بَدَلٌ مِن ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ في الآيَةِ المُتَقَدِّمَةِ مَنصوبَةٌ مِثلها، **والآخَرُ**: أنَّها عَطفُ بَيانٍ؛ قالوا: أي: مِثلَ جَزاءِ عادَةِ مَن كَفَرَ قَبلَكُم مِن تَعذيبِهِم في الدُّنيا. فهُنا مُضافٌ مُقَدَّرٌ مَحذوفٌ[1]. قالَ الطّاهِرُ ابن عاشور: "انتَصَبَ ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ على عَطفِ البَيانِ مِن (مَثَلَ يَومِ الأحزابِ)، ولَمّا كانَ بَيانًا لَهُ كانَ ما يُضافانِ إلَيهِ مُتَّحِدًا لا مَحالَةَ، فصارَ الأحزابُ والدَّأبُ بمعنًى واحِدٍ، وإنَّما يَتِمُّ ذَلِكَ بِتَقديرِ مُضافٍ مُتَّحِدٍّ فيهِما، فالتَّقديرُ: مِثلَ يَومِ جَزاءِ الأحزابِ؛ مِثلَ يَومِ جَزاءِ دأبِ قَومِ نوحٍ وعادٍ وثَمودَ؛ أي: جَزاءِ عَمَلِهِم، ودَأبُهُمُ الَّذي اشتَرَكوا فيهِ هو الإشراكُ باللّه[2].

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالدَّأبِ ونَوعُ الإضافَةِ فيه:

الاستِمرارُ في التَّكذيبِ والعِنادِ ورَدِّ البَيِّناتِ سَبَبُ الهَلاكِ والاستِئصالِ

في قوله سبحانه: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أضافَ النَّظمُ الحَكيمُ لفظَ ﴿دَأْبِ﴾ إلى ﴿قَوْمِ﴾ إضافَةً مَحضَةً؛ فاكتَسَبَتِ التَّعريفَ بِما أوضَحَ المُرادَ بِها، ولَم يَقُل: (مِثلَ يَومِ قَومِ نوحٍ) أو (مِثلَ قَومِ نوحٍ)، وعَبَّرَ بالدَّأبِ لأنَّ الدَّأبَ هوَ العادَةُ والشَّأنُ، والاستمرارُ في إتيانِ الشَّيءِ بِجِدٍّ لدَفعٍ يَمنَعُ الفُتورَ، وهو هُهُنا اجتِهادُهُم في كُفرِهِم وتَظاهُرِهِم على أنبيائِهِم[3]، فهي عادَتُهم ودَيدَنُهم في الكُفرِ والمَعاصي[4] وتَكذيبِ الأنبياءِ.

وفيها إشارَةٌ إلى أنَّ الهَلاكَ لَم يَكُن مُسَبَّبًا عَنِ الأقوامِ، وإنَّما هوَ مُسَبَّبٌ عَمّا أَلِفوهُ مِن رَدِّ البَيِّناتِ، وأنَّ هَذا الرَّدَّ كانَ لَهُم دَأبًا ودَيدَنًا

(1) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب آيات التنزيل: 24/ 152.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (دأب).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 255.

وعادَةً. وإنَّ في هَذا إشارَةً خَفيَّةً إلى قَولِهِ: ﴿مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾؛ لأنَّهُ رَجَعَ إلى قَولِهِ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ﴾ ولَم يَتَزَحزَح عَنهُ، وبِذَلِكَ يَصيرُ رَدُّكم لِلَّذي جاءَ بالبَيِّناتِ مِن رَبِّكُم وهَمُّكُم بِهِ لتَقتُلوهُ قريبًا مِنَ الدَّأبِ إن لَم يَكُن دَأبًا وديدَنًا؛ لأنَّ فِرعَونَ اللَّعينَ أصَرَّ على ما أرادَ.

ثُمَّ إنَّ هَذا وإن كانَ يَدُلُّ مِن وجهٍ على عِلمِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ بالتّاريخِ القَديمِ وأحوالِ الأُمَمِ، ومَصارِعِ مَن حادّوا اللهَ ورَسولَهُ - يَعني: العِلمَ بِسُنَّةِ اللهِ في خَلقِهِ وتاريخِ الأنبياءِ، وأنَّهُ دالٌّ على طولِ مُلازَمَتِهِ لموسى عليه السلام - فإنَّهُ دالٌّ مِن وجهٍ آخَرَ على أنَّ قَومَهُ على مِثلِ هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ العِلمِ بالتّاريخِ القَديمِ وأحوالِ الأُمَمِ البائِدَةِ؛ لأنَّهُ ما كانَ لَهُ أن يُخَوِّفَهُم إلّا مِن شَيءٍ يَعلَمونَهُ[1].

نُكتَةُ ذِكرِ ﴿قَوۡمِ﴾ مَعَ ﴿نُوحٖ﴾ دونَ البَقيَّةِ:

تَـقَـدُّمُ الـذِّكـرِ أغنى عنِ الإعادَةِ وأجـــزَأَ عَــنِ الإطنابِ

في عِبارَةِ ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ ذَكَرَ النَّظمُ الحَكيمُ كَلِمَةَ ﴿قَوۡمِ﴾ مَعَ نوحٍ دونَ بَقيَّةِ الأُمَمِ المَذكورَةِ، وذَلِكَ لأنَّهُ لَمّا ذُكِرَتْ معَ نوحٍ أغنى ذَلِكَ عَن إعادَتِها مَعَ ما عُطِفَ عَلَيهِ، ففُهِمَ مِنَ السّياقِ أنَّ المُرادَ: قَومُ نوحٍ وقَومُ عادٍ وقَومُ ثَمودَ. وهو أسلوبٌ تَكَرَّرَ في القرآنِ الكريمِ في أكثرَ من موضعٍ، مثل [التوبة: 70]، و[إبراهيم: 9]، و[الحج: 42]، و[ص: 12 - 13]؛ جَريًا على قاعِدَةِ الإيجازِ.

ولَعَلَّ ذَلِكَ يَرجِعُ إلى أنَّ هاتينِ القَبيلَتَينِ كانَتا خالِصَتينِ لَعادٍ وثَمودَ، فلَم يَدخُلْ فيهِما أحَدٌ سِواهُما.

ويُلاحَظُ أنَّ النَّظمَ القُرآنيَّ إذا أرادَ التَّفصيلَ والبَيانَ ذَكَرَ نِسبَتَهُم إلى نَبيِّهِم بلَفظِ القَومِ، كَما في قَولِهِ تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ٨٩﴾ [هود: 89].

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.

ثُمَّ يُلاحَظُ أنَّ الرَّجُلَ الصّالِحَ غَيَّرَ مُغايَرَةً خَفيفَةً بَينَ ذِكرِ قَومِ نوحٍ وذِكرِ عادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم؛ لأنَّهُ لَم يَقُل: (مِثلَ دَأبِ قَومِ نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ)، وإنَّما ذَكَرَ الأقوامَ وتَرَكَ ذِكرَ الأنبياءِ بَعدَ نوحٍ عليه السلام. ووَجهُ ذَلِكَ أنَّ نوحًا عليه السلام كانَ في بَدءِ الخَليقَةِ ولَم تَكُن هُناكَ قَبائِلُ قد اتَّسَعَتْ وصارَتْ أُمَمًا وبُعِثَ فيها أنبياءُ، فلَم يَكُن لقَومِ نوحٍ جَدٌّ يُعرَفونَ بِهِ بَينَ غَيرِهِم كَما هوَ الحالُ في عادٍ وثَمودَ والَّذينَ مِن بَعدِهِم[1].

دَلالَةُ التَّرتيبِ بَينَ الأقوامِ المَذكورين:

كُلُّ النّاسِ الَّذينَ على الأرضِ بَعدَ الطّوفانِ هُم ذُرّيَّةُ مَن حُمِلوا مَعَ نوحٍ

في قوله تعالى: ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾ رَتَّبَ النَّظمُ الحَكيمُ ذِكرَ الأقوامِ الَّذينَ خَوَّفَ الرَّجُلُ المُؤمِنُ قَومَهُ مِن مُلاقاةِ مَصيرِهِم، مُبتدِئًا بِذِكرِ قَومِ نوحٍ عليه السلام، الَّذينَ أُغرِقوا بِخَطيئاتِهِم، وكَأنَّ فيهِ تلويحًا بِإغراقِ فِرعَونَ وقَومِهِ، ثُمَّ ذَكَرَ عادًا وثَمودَ لَمّا قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ﴾ [فصلت: 15]، فأرسَلَ اللّه عَلَيهِم ريحًا صَرصَرًا في أيّامٍ نَحِساتٍ، ثُمَّ ذَكَرَ ثَمودَ وقَد أُهلِكوا بالطّاغيَةِ، ثُمَّ اختَصَرَ وقالَ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْۚ﴾؛ مِثلِ قَومِ لوطٍ الَّذينَ أرسَلَ اللّه عَلَيهِم حاصِبًا وأصحابِ الأيكَةِ وغَيرِهِم.

والقُرآنُ الكَريمُ يَبدَأُ ذِكرَ الأنبياءِ بِنوحٍ عليه السلام، ويَقولُ العُلَماءُ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: 7]: إنَّهُ سُبحانَهُ لَمّا قالَ: ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: 7] ذَكَرَ أوَّلَ الأنبياءِ وآخِرَهُم.

ولا بُدَّ أن يَكونَ هُناكَ زَمَنٌ مُتَطاوِلٌ بَينَ نوحٍ وهودٍ عليهما السلام، ولَم يَذكُرِ القُرآنُ نَبيًّا بَينَهُما، وكانَ كُلُّ النّاسِ الَّذينَ على الأرضِ بَعدَ الطّوفانِ هُم ذُرّيَّةَ ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍۚ﴾ [الإسراء: 3]، وهَذِهِ الذُّرّيَّةُ تَكاثَرَتْ، حَتّى صارَ ولَدُ عادٍ - وهوَ واحِدٌ مِن أحفادِ نوحٍ عليه السلام - أُمَّةً وحدَهم، ومثلُ

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.

هذا يقالُ في ثَمودَ إلى آخِرِهِ، وكُلُّ هَذا مُتَضَمَّنٌ في عُدولِ هَذا الرَّجُلِ المُؤمِنِ عَن ذِكرِ الأنبياءِ[1].

مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

في قَولِ اللهِ تعالى على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ: ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ عَطَفَ النَّظمُ الحَكيمُ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ على (ثَمودَ)، فخَصَّصَ بَعضَ الأقوامِ بالذِّكرِ دونَ بَعضٍ، بِقَصدِ تَذكيرِ آلِ فرعونَ بِما أصابَ أولَئِكَ المَعدودينَ مَعَ قُربِ غَيرِهِم إلَيهِم؛ للإشارَةِ إلى أنَّ إهلاكَ اللهِ تعالى للظّالِمينَ ونَصرَهُ المُؤمِنين سُنَّةٌ ماضيَةٌ. وعَطَفَ البَيانُ القُرآنيُّ ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ بالواوِ؛ لتشمَلَ المماثلةُ عُقوبَةَ الأقرَبِ والأبعَدِ على نَحوٍ سَواءٍ.

شُمولُ العُقوبَةِ للأبعَدِ والأقرَبِ على حَدٍّ سَواءٍ

نُكتَةُ التَّعبيرِ بالاسمِ المَوصولِ وصِلَتِهِ:

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ بالاسمِ المَوصولِ في قَولِه: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ للدَّلالَةِ على أنَّ مَن جاؤوا بَعدَ هَؤلاءِ الأقوامِ كانوا مَشهورينَ بالصِّفَةِ نَفسِها الَّتي بها استَحَقَّ هَؤُلاءِ ما حَلَّ بِهِم مِنَ العَذابِ، فشَمِلَهُمُ التَّذكيرُ والتَّخَوُّفُ نَفسُه، فاكتَفى بِهِم وأجمَلَ مَن بَعدَهُم، فعَبَّرَ بالاسمِ المَوصولِ[2] إشارَةً إلى أنَّ الَّذينَ مِن بَعدِهِم كانوا مِنَ الكَثرَةِ بِحَيثُ لا يَتَّسِعُ المَقامُ لِذِكرِهِم كُلِّهِم، لكنَّهم اشتركوا مع المذكورين بالكفرِ والتَّكذيبِ، فأجمَلَهُم؛ لمَعرِفَةِ القَومِ بِهِم لقُربِ عَهدِهِم، وكانَ مصيرُهُم كلِّهم واحدًا.

الأقوامُ الَّذينَ جاؤوا مِن بَعدِهِمُ اشتُهروا بالصِّفَةِ نَفسِها، وهيَ التَّكذيبُ والكُفرُ

فائِدَةُ جرِّ الظَّرفِ بـ﴿مِنۢ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ جُرَّ الظَّرفُ بـ﴿مِنۢ﴾ الدّالَّةِ على ابتداءِ الغايةِ؛ للدَّلالةِ على قُربِ عَهْدِهم بهم، وبذلك يشيرُ النَّظمُ الحَكيمُ إلى تخصيصِ هلاكِهم بالعَذابِ؛ لئَلّا يُقالَ:

الإشارةُ إلى هلاكِهم بالعذابِ كسابِقيهِم

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 118 - 119.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

هَذِهِ عادَةُ الدَّهرِ، فقالَ: ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾؛ أي: بالقُربِ مِن زَمانِهِم، لا جَميعِ مَن جاؤوا بَعدَهم[1].

مَعنى الواوِ في قَولِهِ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ﴾:

الله سُبحانَهُ لَم يَظلِمِ الهالكين، وعـقـابُـهـم بما اكتسبَتْهُ أيديهِم

جاءَ قَولُ اللّه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ فاصِلَةً في خِتامِ الآيَةِ على لسانِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ، فوَصَلَ بَينَها وبَينَ بَقيَّةِ الآيَةِ بالواوِ، وهيَ هَهُنا اعتراضيَّةٌ، فهيَ اعتراضٌ بَينَ كَلامَيهِ المُتَعاطِفَينِ، والمُرادُ: أخافُ عَلَيكم جَزاءً عادِلًا مِنَ اللّه وهو جَزاءُ الإشراكِ[2].

وفائدةُ الاعتراضِ بالواوِ وما بعدَها: بيانُ أنَّ هَلاكَ هَذِهِ الأُمَمِ الكَثيرَةِ ذاتِ العَدَدِ والشِّدَّةِ والقوَّةِ والثَّراءِ - كَما وصَفَت آياتُ القُرآنِ، وكَما كانَ يَعلَمُ الرَّجُلُ الَّذي آمَنَ، وكَما يَعلَمُ قَومُهُ الَّذينَ يُخاطِبُهُم بِما يَعلَمونَ - يَحتاجُ إلى بَيانِ أنَّ اللّه سُبحانَهُ لَم يَظلِمهُم، وأنَّهُم الظّالِمونَ لأنفُسِهِم، كَما قالَ تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡۖ﴾ [هود: 101]، فبَعدَ التَّخويفِ من سوءِ المَصيرِ يأتي بَيانُ طَلاقَةِ العَدالَةِ الإلَهيَّةِ؛ لئَلّا يَمتَريَ مُمتَرٍ فيَظُنَّ أنَّ جَزاءَهُم فوقَ جُرمِهِم، فأتى النَّظمُ القُرآنيُّ بهذا البَيانِ الشّافي؛ ليُثبِتَ أنّ صنيعَهُ سُبحانَهُ بِهَؤُلاءِ الأحزابِ لَم يَكُنْ ظُلمًا، بَل كانَ عَدلًا وقِسطًا؛ لأنَّهُ ﷻ أرسَلَ إلَيهِم رُسُلَهم بالبَيِّناتِ فكَذَّبوهم وتَحَزَّبوا عَلَيهِم، فاقتَضى ذَلِكَ إهلاكَهم[3].

غَرَضُ الافتتاحِ بالنَّفيِ متبوعًا بالإرادة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ﴾:

نَـفـيُ إرادَةِ الظُّلمِ أبلَغُ مِن نَـفـيِ الـظُّـلـمِ، والتَّقديمُ لإفادَةِ الاختِصاصِ

في قَولِه تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ تَقَدَّمَ النَّفيُ على المُسنَدِ والمُسنَدِ إلَيهِ، ولَم يَدخُل على الظُّلمِ، بل على إرادَةِ الظُّلمِ؛ لأنَّ نَفيَ إرادَةِ الظُّلمِ أبلَغُ مِن نَفيِ الظُّلمِ، وهَذا مَعناهُ تَفظيعُ وتَشنيعُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 320.

ما ارتَكَبَتهُ هَذِهِ الأُمَمُ، وأنَّ جَزاءَهُم هو الجَزاءُ العادِلُ دونَ حَيفٍ أو تَرَبُّصٍ.

والتَّقديمُ لإفادَةِ الاختِصاصِ قَطعًا، فالنَّفيُ مَقصورٌ على المَذكورِ دونَ غَيرِهِ[1]، فتَقديمُ اسمِ اللّه على الخَبَرِ الفِعليِّ لإفادَةِ قَصرِ مَدلولِ المُسنَدِ على المُسنَدِ إلَيهِ، وإذ كانَ المُسنَدُ واقِعًا في سياقِ النَّفيِ كانَ المَعنى قَصرَ نَفيِ إرادَةِ الظُّلمِ على اللّه تَعالى قَصرَ قَلبٍ؛ أي: إنَّ اللّه لا يُريدُ ظُلمًا للعِبادِ بَل غَيرُهُ يُريدونَهُ لَهم، وهم قادَةُ الشِّركِ وأئِمَّتُهُ؛ إذ يَدعونَهم إلَيهِ ويَزعُمونَ أنَّ اللّه أمَرَهم بِهِ[2]، فهَلاكُ هَذِهِ الأُمَمِ إنَّما وقَعَ بِهِم؛ لأنَّهُم رَدّوا مَقالَةَ مَن جاءَ بالبَيِّناتِ، فكَيفَ بالمُصِرِّ على قَتلِ مَن لا ذنبَ لَهُ إلّا أنَّهُ قالَ: ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾؟ ففيهِ دَلالَةٌ واضِحَةٌ على تَعنيفِهِم ولَومِهِم، ولَم يَكُن عِقابُهُم مِن جِهَةِ أنَّ اللّه يُريدُ ظُلمَهُم أو ظُلمَ أحَدٍ مِنَ العِبادِ، وإنَّما هوَ مِن جُرمِ أخطائِهِم وبَشاعَةِ سُلوكِهِم، ولَيسَ في البَشاعَةِ أبشَعُ مِن رَدِّ الدَّليلِ البَيِّنِ والبُرهانِ المُستَقيمِ[3].

دَلالَةُ إيثارِ اسمِ الجَلالَةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

التَّعبيرُ بالاسمِ الأعظَمِ في مَقامِ نَفيِ الظُّلمِ إشعارٌ بكَمالِ التَّنَزُّهِ

في جملة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ آثَرَ النَّظمُ الحَكيمُ التَّعبيرَ باسمِ الجَلالَةِ الأعظَمِ الجامِعِ لكُلِّ صِفاتِهِ الجَليلَةِ؛ أي: الَّذي لَهُ الإحاطَةُ بأوصافِ الكَمالِ[4]؛ إشعارًا بعِلَّةِ الحُكمِ وبَيانًا لكَمالِ تَنَزُّهِهِ عَنِ الظُّلمِ بِما لا مَزيدَ عَلَيهِ؛ أي: ما يُريدُ صورةً مِن صوَرِ الظُّلمِ لفَردٍ مِن العِبادِ في وقتٍ مِنَ الأوقاتِ فضلًا عَن أن يَظلِمَهُم؛ وكَيفَ يَظلِمُهُم وهو تعالى لا يُحِبُّ الظّالِمينَ ولا يَهديهِم؟ كَما قالَ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾ [آلِ عِمران: 57]، وقال أيضًا: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾ [آلِ عِمرانَ: 86]، بَل يَدعو عَلَيهِم كَما في قَولِهِ: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون: 41].

(1) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 121 - 122.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 135.
(3) محمد محمد أبو موسى، آل حم: غافر وفصلت: دراسة في أسرار البيان، ص: 121 - 122.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

ولَمّا كانَت قَضيَّةُ الظُّلمِ أخطَرَ قَضيَّةٍ في سياقِ كَلامِ مُؤمِنِ آلِ فِرعَونَ كانَ مِنَ المُناسِبِ أن يَكونَ التَّعبيرُ بالاسمِ الأعظَمِ؛ دَفعًا لأيِّ وهمٍ في الفِكرِ أو شَطَطٍ في التَّصَوُّرِ.

دَلالَةُ التَّعبيرِ بالمُضارِعِ ﴿يُرِيدُ﴾:

تَجَدُّدُ نَفيِ الظُّلمِ عَن رَبِّ العِزَّةِ

عَبَّرَ النَّظمُ الحَكيمُ في جملة ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ بصيغَةِ المُضارَعَةِ ﴿يُرِيدُ﴾؛ للدَّلالَةِ على تَجَدُّدِ النَّفيِ واستمرارِهِ، فيَتَجَدَّدُ مِنهُ نفيُ أن يُعَلِّقَ إرادَتَهُ وقتًا ما بنَوعٍ من أنواعِ الظُّلمِ[1].

نُكتَةُ تَنكيرِ ﴿ظُلۡمٗا﴾:

تَنزيهُ الإرادةِ الإلهيَّةِ عَن تعلُّقِها بأدنى جنسِ للظُّلم

في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ جاءَتْ كَلِمَةُ ﴿ظُلۡمٗا﴾ نَكِرَةً مَسبوقةً بالنَّفيِ لإفادَةِ العُمومِ؛ أي: لا يُريدُ تعالى أيَّ نَوعٍ مِنَ الظُّلمِ ولو بمقدارِ ذَرَّةٍ، إذ هوَ تعالى مُنَزَّهٌ عَنِ الظُّلمِ، فدَلَّ سياقُ النَّفيِ على انتفاءِ جِنسِ الظُّلمِ كلِّه عَن أن تَتَعَلَّقَ بِهِ إرادَةُ اللهِ تَعالى، فكُلُّ ما يُعَدُّ ظُلمًا في مَجالِ العُقولِ السَّليمَةِ يَنتفي أن يَكونَ مُرادَ اللهِ تعالى.

الجَمعُ بَينَ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيهِ في ﴿ظُلۡمٗا﴾:

حرّم الله تَعالى الظُّلمَ على نفسِهِ، ولا يُحِبُّ صُدورَهُ مِن عِبادِهِ

الظُّلمُ يُطلَقُ على الشِّركِ، كَما في قَولِهِ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لقمان: 13]، ويُطلَقُ على المُعامَلَةِ بِغَيرِ الحَقِّ، وقَد جَمَعَ قَولُهُ: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ نَفيَ الظُّلمِ بِمَعنَيَيهِ على طَريقَةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيهِ.

وكَذَلِكَ الفِعلُ ﴿يُرِيدُ﴾ يُطلَقُ بِمَعنى المَشيئَةِ كَقَولِهِ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾ [المائدة: 6]، ويُطلَقُ بِمَعنى المَحَبَّةِ كَقَولِهِ: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ [الذّاريات: 57]، فلَمّا وقَعَ فِعلُ الإرادَةِ في حَيِّزِ النَّفيِ اقتَضى عُمومَ نَفيِ الإرادَةِ بِمَعنَيَيها على طَريقَةِ استِعمالِ المُشتَرَكِ في مَعنَيَيهِ، فاللهُ تَعالى لا يُحِبُّ صُدورَ ظُلمٍ مِن عِبادِهِ، ولا يَشاءُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 60.

أن يَظلِمَ عِبادَهُ. وأوَّلُ المَعْنَيَينِ في الإرادَةِ وفي الظُّلم أعلَقُ بِمَقام الإنذارِ، والمعنى الثّاني تابِعٌ للأوَّلِ؛ لأنَّهُ يَدُلُّ على أنَّ اللّه تَعالى لا يَترُكُ عِقابَ أهلِ الشِّركِ؛ لأنَّهُ عَدلٌ، ولأنَّ التَّوَعُّدَ بالعِقابِ على الشِّركِ والظُّلم أقوى الأسبابِ في إقلاعِ النّاسِ عَنهُ، وصِدقُ الوَعيدِ من مُتَمِّماتِ ذَلِكَ مَعَ كَونِهِ مُقتَضى الحِكمَةِ لإقامَةِ العَدلِ. هذا على المَعنى الأوَّلِ للظُّلم. وأمّا على المَعنى الثّاني فالمرادُ: ما اللّه يُريدُ أن يَظلِمَ عِبادَهُ، ولَكِنَّهم يَظلِمونَ أنفُسَهم باتِّباعِ أئِمَّتِهِم على غَيرِ بَصيرَةٍ كَقَولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونس: 44]، وبِظُلمِهِم دُعاتَهم وأئمَّتَهم كَما قالَ تَعالى: ﴿وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ ١٠١﴾ [هود: 101][1].

مَعنى اللّامِ الجارَّةِ في ﴿لِّلۡعِبَادِ﴾:

جاءَتِ اللّامُ في قَولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ للاختِصاصِ؛ أي: لا تَتَعَلَّقُ الإرادَةُ الإلَهيّةُ المُنَزَّهَةُ بأيِّ ظُلمٍ لأيِّ عَبدٍ من عِبادِ اللّهِ تعالى.

مَعنى (أل) في (العِبادِ):

عَرَّفَ النَّظمُ الحَكيمُ لفظَ (العِبادِ) باللّام في قَولِه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾، وهي هَهُنا جِنسيَّةٌ لإفادَةِ كَمالِ التَّنزيهِ؛ أي: جِنسِ العِبادِ كُلِّهِم، فهيَ أبلَغُ في نَفيِ تَعَلُّقِ الإرادَةِ الإلَهيَّةِ بِظُلمِ أيِّ عَبدٍ من عِبادِ اللّهِ تعالى.

(أل) هَهُنا جِنسيَّةٌ لإفادَةِ كَمالِ التَّنزيهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّة:

يَدُلُّ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّةِ عادةً على دَوامِ الثُّبوتِ، وعِندَ دُخولِ حَرفِ النَّفيِ عَلَيها كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ تَدُلُّ على دَوامِ الانتِفاءِ لا على انتِفاءِ الدَّوامِ، فعدمُ إرادةِ اللّهِ الظُّلمَ لعبادِهِ دائمٌ.

المُكذِّبون لموسى عليه السلام هُمُ الظّالِمونَ؛ ظَلَموا أنفُسَهُم بِتَعريضِها للعَذابِ الخالِدِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 136.

وسياقُ الجملة القُرآنيَّةِ وسَبكُهُ على النَّحوِ المَذكورِ فيهِ نَوعُ إيماءٍ إلى التَّعريضِ بأنَّ المُكَذِّبينَ لموسى ﷺ هُمُ الظّالِمونَ؛ لأنَّهم ظَلَموا أنفُسَهُم بتَعريضِها للعَذابِ الخالِدِ، كَما في قَولِهِ تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـٔٗا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٤٤﴾ [يونُس: 44].

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 51 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-97-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 51 : المجلد الحادي والخمسون، سورة الزُّمر من الآية 73 إلى سورة غَافِر الآية 76.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-97-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4644027 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»